(٩)

مجالس رمضان

تأليف

محمد بن عبد الله السبيل

إمام وخطيب المسجد الحرام

المُقَـدِّمَة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

فهذه مجالس متنوعة عن شهر رمضان المبارك تتضمن بيان فضل هذا الشهر الكريم ، وأحكام الصيام ، وتعداد فضائله ، وشرح آدابه ، والحث على اغتنام موسمه بالطاعات ، والتحذير من التفريط بهذا الموسم الشريف.

أسأل الله تعالى أن ينفع بها ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

محمد بن عبد الله السبيل

(١)

استقبال رمضان

روي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال : « يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة ، وقيام ليله تطوعًا ، وهو شهر الصبر ، والصبر جزاؤه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد في رزق المؤمن فيه ، من فطر فيه صائمًا كان مغفرة له ، وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء ، قالوا : يا رسول الله : ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم ؟ فقال رسول الله ﷺ : يعطى هذا الثواب من فطر صائمًا على تمرة أو شربة ماء أو مذقة لبن ، وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار ، من خفف فيه عن مملوكه غفر الله له ، وأعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال ، خصلتين ترضون بها ربكم ، وخصلتين لا غنى لكم عنهما ، فأما الخصلتان اللتان ترضون بها ربكم : فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه . وأما الخصلتان اللتان لا غنى لكم عنها : فتسألون الله الجنة ، وتعوذون به من النار ، ومن سقى صائمًا سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة » رواه ابن خزيمة وقال : إن صح هذا الخبر ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والأصبهانى فى الترغيب .

دل هذا الحديث الشريف على شفقته ﷺ ورأفته بأمته ، ومحبته لمزيد الخير لهم، وقد تضمنت هذه البشارة بيان بركة هذا الشهر العظيم ثواب الله

لعباده الصائمين ، لا سيما في الليلة الشريفة ليلة القدر ، التي جعل الله العباده فيها خيرًا من العبادة في ألف شهر ، خالية من ليلة القدر .

وفي هذا الحديث بيان فرضية صيام رمضان ، وسنية قيامه ، وفيه تسميته بشهر الصبر ، والإخبار بأن الصبر جزاؤه الجنة ، وقد قال سبحانه وتعالى في فضل الصبر : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] .

وفيه الحث على المساواة والإحسان إلى الناس في هذا الشهر المبارك ، وفضيلة من فطر صائمًا ، وأنه يحصل له من الأجر مثل ثواب من فطره من غير أن ينقص من أجره شيئًا ، وأنه تحصل له المغفرة والعتق من النار ، وأن هذا الثواب العظيم لمن فطر صائمًا ولو كان على شيء يسير كتمرة أو شربة ماء أو مذقة لبن -أي جرعة لبن مخلوطة بماء- وأن هذا الشهر خصه الله بمزيد من تنزل الرحمات ، وحصول المغفرة ، وأنه في آخره يحصل للصائمين العتق من النار ، وهذا غاية ما يتسابق إليه المتسابقون ، وأي فضل أو فوز أعظم من ذلك كما قال سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وفي الحديث فضيلة التخفيف عن المملوك والأجير في هذا الشهر وعدم المشقة عليهم ، والتوسع في النفقة على الأهل والأولاد ، ومن تحت يده ، وأنه تحصل المغفرة والعتق من النار لمن فعل ذلك .

وفيه الحث على فضل لا إله إلا الله وكثرة ثوابها ، وأنها سبب لحصول رضا الرب سبحانه ، وكذلك طلب المغفرة ، وكثرة الاستغفار ، والالتجاء إلى الله في طلب مغفرة الذنوب .

وفيه الأمر بسؤال الجنة والاستعاذة من النار ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يتضاعف جوده على عباده في هذا الشهر ، فينبغي للمؤمن أن يتعرض لنفحات الله ويلح في الدعاء ، فإن الله يحب الملحين في الدعاء ، كما أن الدعاء أيضًا عبادة ، بل هو غاية العبادة ، كما روي في الحديث : « الدعاء مخ العبادة» رواه الترمذي وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ، وفي رواية : « الدعاء هو العبادة» رواه الأربعة وصححه الترمذي ، وينبغي أن يصرف كثرة الدعاء في أعظم مرهوب ، وأفضل مرغوب ، وهو الاستعاذة بالله من النار، وسؤال الجنة ، ولذلك لما قال الأعرابي للنبي ﷺ : « يا رسول الله إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، ولكني أسأل الله الجنة ، وأستعيذ به من النار ، فقال ﷺ : حولها ندندن » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة ، أي أن ما ندعو به ، ونسأل الله فيه، غايته الاستعاذة من النار ، وسؤال الجنة .

وفي الحديث فضيلة الإحسان إلى الصائمين ، لا سيما سقياهم ، وأن من سقى صائمًا كان جزاؤه أن الله يسقيه من حوض نبيه شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة .

وفي الجملة فإن الحديث يدل على سعة فضل الله على هذه الأمة ، وأن الله اختصها بمزيد من الإنعام والإحسان لم يكن لمن قبلها ، لا سيما في هذا الشهر المبارك ، مع أن الصيام لم يكن من خصائص هذه الأمة ، ولكن حصل لها في هذا الشهر مميزات وفضائل لم تحصل لغيرهم ، فقد اشتركت هذا الأمة في التكليف في الصيام وفرضيته على الجميع ، وامتازت هذه الأمة

على غيرها بزيادة الثواب ، وحصول هذه الليلة لهم التي عبادة فيها خير من عبادة ألف شهر .

اللهم وفقنا للصيام والقيام ، وتقبل منا صالح الأعمال ، وارزقنا جنتك ، وأعذنا من النار .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

(٢)

وجوب الصيام

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما : لما سئل رسول الله ﷺ عن الإسلام ، قال : « أن تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » .

دل الحديث على أن صيام رمضان أحد أركان الإسلام ، فهو فرض من فرائض الإسلام ، والأصل في وجوبه من الكتاب قوله عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٥] ، فذكر عز وجل الصيام ، وأنه كتب على هذه الأمة كما كتب على الأمم السابقة ، ثم بين سبحانه هذه الفائدة العظيمة للصيام ، وهي التقوى فقال : ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله ، فيكون الصيام وسيلة من وسائل التقوى ، وهل هناك أعظم وأنفع من التقوى ، فإن المؤمن إذا اتقى ربه صار من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، كما قال عز وجل : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] .

والتقوى : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، فالصيام هو الطريق الأعظم لحصول هذه الغاية الجليلة التي توصل العبد

إلى السعادة والفلاح ، فإن الصائم يتقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من طعام وشراب وغير ذلك من الشهوات والملذات ، تقديمًا لمحبة الله على محبة النفس ، وهذا من علامات الإيمان ومن الأدلة على صدقه ؛ ولذلك اختصه الله من بين سائر الأعمال ، ونبه على شرفه ومكانته عنده سبحانه ، فقال عز وجل كما في الحديث القدسي : « الصوم لي وأنا أجزي به » رواه البخاري ومسلم .

وبالصيام يزداد الإيمان، ويتمرن العبد على الصبر والثبات، وضبط النفس عن الاندفاع والجري وراء الشهوات البهيمية الضارة في العاجل والآجل .

وبالصيام تحصل الإعانة من الله للعبد في كثير من العبادات والطاعات التي قد تثقل عليه في غير وقت الصيام ، ككثرة الاستغفار، والتوبة إلى الله ، والذكر ، والتسبيح ، والتهليل ، وقراءة القرآن ، والصلاة ، والصدقة ، وغير ذلك من خصال الإحسان .

وبالصيام يحصل الردع والزجر للنفس عن الأمور المحرمة من الأقوال ، كالسب ، والشتم ، والتكلم في أعراض الناس ، ومن الأفعال التي قد يفارقها إذا لم يكن صائمًا مما هي محرمة عليه ، وكل هذه الأمور التي أُمر بها أو نُهي عنها إذا امتثل المسلم المأمور منها واجتنب المنهي عنه فقد اتصف بالتقوى ، التي هي من فوائد الصيام .

ثم إن المسلم بالصيام يتذكر نعم الله عليه فيما هيأ له من النعم، وأصناف المأكولات والمشروبات ، وما يتبع ذلك من الملاذ الآخر ، فإنه

متى امتنع منها في وقت من الأوقات حصل عنده شيء من المشقة والاشتياق إلى ما منع منه ، وذاق ألم الجوع والظمأ ، ثم إذا تناولها تذكر نعمة الله وشكره عليها ، وتذكر أحوال إخوانه المعوزين الذين لا يجدون ما يجد، ولا تحصل لهم هذه النعمة حال فطرهم ، فحمله ذلك على العطف ، والحنو عليهم بالإحسان ، والصدقة عليهم ، ومساواتهم فيما يقدر عليه ، فهكذا أعمال الطاعات يعين بعضها على بعض .

وبالصيام يكون العبد صابرًا على الطاعات ، وصابرًا عن المخالفات، وصابرًا على أقدار الله المؤلمة ، فيكون الصيام جمع أنواع الصبر الثلاثة، ولذلك سُمي شهر رمضان شهر الصبر، وعظم الثواب فيه أعظم من غيره؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] .

والصيام يحمي صاحبه ويصونه عن الوقوع في الفواحش ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » رواه البخاري ومسلم.

قال بعض العلماء : ومن منافع الصوم البديعة ما ذكر الأطباء أنه يحفظ الصحة ، ويذيب الفضلات المؤذية ، ويريح القوى ، ويرد إليها قوتها، وهو من أفضل أنواع الحمية عن تناول ما يؤذي البدن .

فبهذا يتبين لك أيها المسلم أن الصيام جمع مصالح الدين والدنيا والآخرة ، نسأله جل وعلا أن يجعلنا جميعًا من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

(٣)

فضل صيام رمضان (١)

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، يقول الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشهوته من أجله ، وللصائم فرحتان : فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك : الصوم جنة ...» . وفي رواية في الصحيحين : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي» . وفي رواية للبخاري : « لكل عمل كفارة والصوم لي وأنا أجزي به» .

قال ابن رجب رحمه الله : فعلى الرواية الأولى يكون استثناء الصوم من الأعمال المضاعفة ، فتكون الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلا الصيام فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد ، بل يضاعفه الله عز وجل أضعافًا كثيرة بغير حصر عدد ، فإن الصيام من الصبر وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، ولذا ورد عن النبي ﷺ أنه سمى شهر رمضان شهر الصبر . وفي الترمذي عنه ﷺ قال: « الصوم نصف الصبر ، والصبر ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة » .

وتجتمع كلها في الصوم ، فإن فيه صبرًا على طاعة الله ، وصبرًا عما حرم الله على الصائم من الشهوات ، وصبرًا على ما يحصل للصائم من ألم الجوع والعطش ، وضعف النفس والبدن ، وهذا الألم الناشئ من أعمال

الطاعات يثاب عليه صاحبه ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة:١٢٠] .

وحيث إننا علمنا ما جاء في السنة مضاعفة أجر الصائم إلى أضعاف كثيرة لا تدخل تحت حصر ، وكما قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

فاعلم أيضًا أن مضاعفة الأجر للأعمال كما كانت في رمضان ؛ لشرفه وفضله ، وهذه فضيلة زمانية بخصوص هذا الشهر ، فقد تكون أيضًا مضاعفة لشرف المكان المعمول فيه ذلك العمل ، كالحرمين الشريفين ، فإنه ثبت عند البخاري ومسلم عنه ﷺ قال : « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» ، وفي رواية « أفضل».

وجاء في سنن ابن ماجة عن ابن عباس رضي الله عنه : « من أدرك بمكة فصامه وقام منه ما تيسر ، كتب الله له مائة ألف شهر رمضان فيما سواه» .

ومنها : شرف الزمان : كشهر رمضان وعشر ذي الحجة ، وفي حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه في فضل شهر رمضان : « فمن تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه» .

وفي الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : «سئل النبي ﷺ : أي الصدقة أفضل ؟ قال: صدقة في رمضان» .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « عمرة في رمضان تعدل حجة أو قال : حجة معي» .

قال النخعي : « صوم يوم من رمضان أفضل من ألف يوم ، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحة ، وركعة فيه أفضل من ألف ركعة» .

فلما كان الصيام في نفسه مضاعفًا أجره بالنسبة إلى سائر الأعمال كان صيام شهر رمضان مضاعفًا على سائر الصيام لشرف زمانه ، وكونه هو الصوم الذي فرضه الله على عباده وجعل صيامه أحد أركان الإسلام التي يبنى عليها .

وقد يضاعف الثواب بأسباب أخرى منها : شرف العامل عند الله ، وقربة منه ، وكثرة تقواه ، كما ضوعف أجر هذه الأمة على أجور من قبلهم من الأمم ، وأعطوا كفلين من الأجر .

وروى البيهقي في شعب الإيمان وغيره عن سفيان بن عيينة في هذا الحديث وهو قوله ﷺ : «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » الحديث . قال سفيان رحمه الله : هذا من أجود الأحاديث وأحكمها ، إذا كان يوم القيامة يحاسب الله عبده ، ويؤدي ما عليه من المظالم من سائر عمله، حتى لا يبقى إلا الصوم ، فيتحمل الله عز وجل ما بقي عليه من

المظالم ، ويدخله بالصوم الجنة .

فالمفهوم من كلام سفيان رضي الله عنه أن الصيام حيث كان لله ، فلا سبيل لأحد إلى أخذ شيء من ثوابه وأجره ، بل أجره مدخر لصاحبه عند الله ، وحينئذ يقال : إن سائر الأعمال قد يكفر بها ذنوب صاحبها ، فلا يبقى لها أجر ، لما روي أنه يوازن يوم القيامة بين الحسنات والسيئات ، ويقص بعضها من بعض ، فإن بقي من الحسنات حسنة ، دخل بها صاحبها الجنة ، كما قال سعيد بن جبير وغيره ، ويشهد لذلك من القرآن قوله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة:٦-٩] ، وقوله : «إلا الصيام فإنه لي» .

تكلم العلماء رحمهم الله على ذلك بعبارات كثيرة ، ومن أجمعها قولان: أحدهما : أن الصيام هو مجرد ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها ، طاعة لله ، وامتثالاً لأمره ، ولا يوجد ذلك في غيره من العبادات ، وإن وجد في غير الصيام شيء من ذلك فهو لا يوجد كله فيه ، ولا يستغرق من الزمن مثل زمن الصيام ، فمثلاً في حال الإحرام يجب اجتناب الجماع ودواعيه من طيب ونحوه دون سائر الشهوات من الأكل والشرب ، وكذلك الاعتكاف مع أن الاعتكاف تابع للصيام ، وأما الصلاة فإنه وإن ترك فيها الشهوات إلا أنه مدتها لا تطول فلا يجد المصلي ، فقْد الطعام والشراب في صلاته ، بل قد نهي أن يصلي ونفسه تتوق إلى طعام بحضرته حتى يتناول منه ما يسكن نفسه ، ولهذا أمر النبي ﷺ بتقديم العشاء

على الصلاة .

المعنى الثاني : على قوله : «إلا الصيام فإنه لي». أن المراد أن الصيام سر بين العبد وربه لا يطلع عليه غيره ؛ لأنه مركب من نية باطنة لا يطلع عليها إلا الله وحده ، وترك لتناول الشهوات التي يستخفي عند تناولها في العادة ، ولذلك قيل : إن الصيام لا يدخله الرياء .

وقوله : « ترك طعامه وشرابه من أجلي» فيه إشارة إلى أن الصائم يتقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من الطعام والشراب والنكاح ، وهذا من أعظم شهوات النفس .

اللهم اجعلنا ممن يصوم هذا الشهر ويقومه إيمانًا واحتسابًا . اللهم اجعلنا ممن يتأدب بآدابه ، ومن علينا وعلى جميع المسلمين بالعفو والغفران والرحمة والرضوان.

وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه .

* * *

(٤)

فضل صيام رمضان (٢)

ومن فضائل الصيام أن الله سبحانه أضافه لنفسه ، بقوله : «الصوم لي وأنا أجزي به» ، كما جاء ذلك في الحديث الذي في الصحيحين ، وذكر بعض أهل العلم معنى ذلك بقوله : إن المعنى هو أن الصيام مجرد ترك الحظوظ التي للنفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها لله عز وجل ، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام ، وإن كان يوجد بعضًا من ذلك كالإحرام مثلاً ، فالمحرم إنما يترك فيه الجماع ودواعيه من الطيب دون سائر الشهوات من الأكل والشرب .

وكذلك الاعتكاف مع أنه تابع للصوم .

وأما الصلاة فإنه وإن ترك المصلي فيها جميع شهواته إلا أن مدتها قصيرة لا تطول ، فلا يجد المصلي فقْد الطعام والشراب في صلاته ، بل إنه قد جاء النهي عن الصلاة لمن تتوق نفسه إلى الطعام حتى يتناول منه ما يسكن به نفسه ؛ ولهذا جاء عنه ﷺ الأمر بتقديم العشاء على الصلاة ،

وهذا بخلاف الصيام فإنه يستوعب النهار كله ، فيجد الصائم فقد هذه الشهوات ، وتتوق نفسه إليها خصوصًا في نهار الصيف لشدة الحر ، وطول وقت الصيام ، ولهذا ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: « إنه من خصال الإيمان الصوم في الصيف» رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وقد كان ﷺ يصوم رمضان في السفر في شدة الحر دون أصحابه كما قال أبو الدرداء : « كنا مع النبي ﷺ في رمضان في سفر ، وأحدنا يضع يده على رأسه من شدة الحر ، وما فينا صائم إلا رسول الله وعبد الله بن رواحة » رواه البخاري ومسلم . فإذا اشتد توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ، ثم تركته لله عز وجل في موضع لا يطلع عليه إلا الله ، كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان . فإن الصائم يعلم أن له ربًا يطلع عليه في خلوته ، وقد حرم عليه أن يتناول شهواته المجبول على الميل إليها في الخلوة ، فأطاع ربه ، وامتثل أمره ، واجتنب نهيه ؛ خوفًا من عقابه ، وطمعًا في ثوابه ، فشكر الله له ذلك ، واختص لنفسه عمله هذا من بين سائر أعماله ، ولهذا قال بعد ذلك : « إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي» رواه مسلم .

قال بعض السلف : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره ، وهذه حالة المؤمن الذي أذاقه الله حلاوة الإيمان ، فإنه يقدم رضا مولاه على تناول شهواته ، ولهذا يقول ﷺ : « لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» رواه الحكيم الترمذي والخطيب وابن أبي عاصم وغيرهم .

فمما جاء به ﷺ الأمر بالصيام ، والكف عن تناول الطعام والشراب في هذا الوقت المخصوص ، امتثالاً لأمر الله وأمر رسوله ، فامتثل أمرهما ، وقدم رضا مولاه على هواه ، فصارت لذته في ترك شهوته لله ؛ لإيمانه باطلاع الله عليه ، وبثوابه وعقابه ، فتصير لذته فيما يرضي الله ، وإن كان مخالفًا لهواه ، ويكون ألمه فيما يكرهه مولاه ، وإن كان موافقًا لهواه .

وإذا كان هذا فيما حرم لعارض الصوم من الطعام والشراب ومباشرة

النساء ، فينبغي للصائم أن يتأكد ذلك عنده فيما حرم الله عليه مطلقًا ، كالزنا ، وشرب الخمر ، وأخذ أموال الناس ، وهتك أعراضهم بغير حق ، وسفك الدماء المحرمة ، فإن هذا يسخط الله ويكرهه على كل حال ، وفي كل زمان ومكان ، فإذا منّ الله على المؤمن بكمال الإيمان كره ذلك كله وأبغضه ، ولهذا جعل النبي ﷺ من علامات وجود حلاوة الإيمان ، أن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار .

« سئل ذو النون : متى أحبُّ ربي ؟ قال : إذا كان ما يُبغضه عندك أمرَّ من الصبر» رواه أبو نعيم في الحلية .

وقال بعضهم : ليس من أعلام المحبة أن تحب ما يكرهه حبيبك ، ولكن الأمر الذي عليه كثير من الناس اليوم أنهم يمشون على العوائد ، فلا يكون عنده استحضار للعبادة التي يؤديها ويقوم بها ، بل يقوم بحسب المعتاد الذي اعتاده ، دون نظر إلى ما يوجبه الإيمان ويقتضيه .

فتجده يستعظم فعل بعض الأشياء الصغيرة مما نهي عنه ، ولكن يرتكب الأمور العظام ، وربما ترك المباح المرخص به شرعًا ، جريًا على العادة ، مثل أن يكون له عذر في الإفطار لمرض أو سفر ونحوه ، فيترك الفطر ، ويرى ذلك من الورع ، ومن المحافظة على الواجبات ، ولكنه لا يرتدع عن أن يقع في أعراض الناس ، لأنه اعتاد ذلك ، وسهل عليه ، ولا يرتدع عن أكل أموال الناس ، فهذا يجري على عوائده في ذلك كله لا على مقتضى الإيمان ، ومن عمل بمقتضى إيمانه ، صارت لذته في مصايرة نفسه عما تميل نفسه إليه إذا كان فيه سخط الله .

فعلى العاقل الناصح لنفسه أن يتفقد أحواله وشؤونه ، ويستحضر في عباداته أوامر الله ، وأنه فعل ذلك امتثالاً لأمره ، ومسارعة إلى رضاه ؛ رجاء ما عنده ، وخوفًا من عقابه ، ويستحضر عند تركه ما حرم الله البعد عنه من أجل نهي الله عنه ؛ خوفًا من عقابه ، ورجاء ثوابه .

ويحرص كل الحرص أن يفرق بين ما يفعله عبادة ، وما يفعله عادة، ويستشعر النية في أعماله ؛ لقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» رواه البخاري .

وعلى المسلم أن يأخذ بوصية جابر بن عبد الله رضي الله عنه في صيامه حيث يقول : «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ودع أذى الجار ، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك ، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء» رواه ابن أبي شيبة في مصنفه .

ولقد حذر الناصح لأمته ﷺ مما يخل بالصوم ، فقال : « رب صائم حظه من صومه الجوع والعطش ، ورب قائم حظه من قيامه السهر»رواه أحمد وابن أبي شيبة في مصنفه .

اللهم وفقنا للعمل بما يرضيك ، وجنبنا أسباب سخطك ومناهيك يا حي يا قيوم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(٥)

فوائد الصيام

يمتن الله سبحانه وتعالى على عباده بالنعم المتوافرة في دينهم ودنياهم، خلقهم ورزقهم ؛ ليعبدوه وينيبوا إليه ، ووعدهم جزاء عبادتهم له النعيم المقيم ، وجعل السعادة والحياة الطيبة لأهل الإيمان ، ومن فاته الإيمان فاتته السعادة الأبدية ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] .

وشرع سبحانه لعباده المؤمنين أوقاتًا ومواسم للعبادات ، يجازيهم فيها على العمل القليل أوفر الجزاء ، ويكفر فيها عنهم سيئاتهم ، ويطهرهم من أدناس الرذائل ، وأوضار الذنوب والمعاصي .

ومن أعظم هذه المواسم بركة وأكبرها نفعًا هو هذا الشهر المبارك شهر رمضان الذي اختصه الله بخصائص ، لا توجد في سواه .

منها : أن الله سبحانه أنزل القرآن فيه ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥].

ومنها : أن الله جعل فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، فالعبادة فيها خير من عبادة ألف شهر خالية منها ليلة القدر .

ومنها : أن مضاعفة الحسنات تحصل بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف

إلا الصيام فإن مضاعفته غير محصورة بعدد ، فإن الله يضاعف الأجر للصائم أضعافًا كثيرة بغير حصر عدد ، لأن الصيام من الصبر ، والله سبحانه يقول : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

ومن فوائد الصيام : كسر النفس عن الأشر والبطر والتعاظم في النفس، فإن الشبع والري ومباشرة النساء تحمل النفس على البطر والترفع على الناس ، والغفلة عن الله .

ومن فوائده : تخلي القلب للفكر والذكر ، فإن تناول الشهوات قد يقسي القلب ويعميه ، ويحول بين العبد وبين الذكر والفكر ، وتستدعي الغفلة .

وخلو البطن من الطعام والشراب ينور القلب ، ويوجب رقته ويزيل قسوته ، ويخليه للفكر والذكر .

ومن فوائد الصيام : أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه بإقداره له على ما منعه كثيرًا من الفقراء من فضول الطعام والشراب والنكاح ، فإنه بامتناعه من ذلك في وقت مخصوص ، وحصول المشقة له بذلك يتذكر به حالة من منع من ذلك على الإطلاق ، فوجب له ذلك شكر نعمة الله عليه بالغنى ، ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج ومواساته بما يمكن من ذلك .

ومنها : أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم ، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان ، وتنكسر ثورة الشهوة والغضب ، ولهذا جعل النبي ﷺ

الصوم وجاء لقطعه عن شهوة النكاح .

وليعلم الصائم أنه لا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك الشهوات المباحة إلا بعدما يتم التقرب إليه ، بترك ما حرم الله عليه في كل حال من الكذب ، والظلم ، والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» ، وقد أخرج هذا الحديث البخاري رحمه الله وجاء في الحديث الآخر : « ليس الصيام من الطعام والشراب ، إنما الصيام من اللغو والرفث» .

قال بعض السلف : « أهون الصيام ترك الشهوات» .

وقال جابر رضي الله عنه : « إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ، ودع أذى الجار ، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك ، ولا تجعل يوم صومك وفطرك سواء» رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، وقد قيل في هذا المعنى :

إذا لم يكن في السمع مني تهـــــاون

وفي بصري غض وفي منطقي صمت

فحظي إذًا من صومي الجوع والظمأ

فإن قلت إني صمت يومي فما صمت

وقال النبي الكريم ﷺ : «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر» رواه أحمد والبيهقي والحاكم .

قال بعض العلماء : وسر هذا أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات ، فمن ارتكب المحرمات ثم تقرب إلى الله بترك المباحات ، كان بمثابة من يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل ، وإن كان صومه مجزئًا عند الجمهور ، بحيث لا يؤمر بالإعادة ؛ لأن العمل إنما يبطل بارتكاب ما نهي عنه فيه لخصوصه دون ارتكاب ما نهي عنه لغير معنى يختص به .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

❊ ❊ ❊

(٦)

من فوائد الصيام

للصيام فوائد عديدة ، منها : كسر النفوس عن الاسترسال في شهواتها التي غالبًا ما تحملها على الأشر والبطر والغفلة عن ذكر الله واللهو الذي ينسي العبد أمر آخرته ويرغبه في أمر دنياه ، فإن الشبع والري ومباشرة النساء كثيرًا ما يكون سببًا للغفلة عما أوجب الله على العبد من أعمال الطاعات ويثقل أداءها عليه ، فربما أداها على كره ، أو تثاقل ، أو كسل ، فيتصف الرجل بصفات المنافقين الذين ذكرهم الله بقوله : ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] .

ومن فوائد الصيام أنه يفرغ القلب ، ويخليه للفكر والذكر ، فإنّ تناول هذه الشهوات والتمادي معها قد يقسي القلب ويعميه ، ويحول بين العبد وبين ذكر الله ، والتفكر في مخلوقاته التي أمرنا سبحانه بالتفكر بها ، كما في قوله عز وجل : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران :١٩٠-١٩١] وخلو البطن من الطعام والشراب ينور القلب ، ويوجب رقته ، ويزيل قسوته ، ويفرغه للذكر والفكر .

ومنها : أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من

ابن آدم ، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فبالصيام تسكن وساوس الشيطان ، وتتكسر ثورة الشهوة والغضب ، ولهذا جعل النبي ﷺ الصوم وِجَاء لقطعه شهوة النكاح ، فهذه إشارة إلى شيء من فوائد الصيام .

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك هذه الشهوات المباحة التي أباحها الله لنا ، ومنع منها حالة الصيام ، إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله علينا في كل حال في الصيام وغيره من الكذب ، والظلم ، والعدوان على الناس في دمائهم ، وأموالهم ، وأغراضهم ، ولهذا قال النبي الكريم ﷺ : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» أخرجه البخاري في صحيحه .

وفي الحديث : « ليس الصيام من الطعام والشراب إنما الصيام من اللغو والرفث» رواه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه .

وقال بعض السلف : « أهون الصيام ترك الطعام والشراب» ، وقال رضي الله عنه : «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ، ودع أذى الجار ، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك ، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء» رواه ابن أبي شيبة في مصنفه .

وقال النبي ﷺ : « رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ، ورب قائم حظه من قيامه السهر » رواه أحمد وابن ماجة والنسائي وغيرهم.

وفي مسند الإمام أحمد : أن امرأتين صامتا في عهد النبي ﷺ فكادتا أن تموتا من العطش ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فأعرض ، ثم ذكرتا له فدعاهما

فأمرهما أن يتقيئا فقاءتا ملء قدح قيحًا ودمًا وصديدًا ولحمًا عبيطًا ، فقال النبي ﷺ : « إن هاتين صامتا عما أحل الله ، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى ، فجعلتا تأكلا لحوم الناس» رواه أحمد وأبو داود وابن أبي شيبة في مصنفه .

فعلى كل صائم لزوم المحافظة على صيامه ؛ خوفًا من بطلانه ، وذهاب أجره ، وطمعًا فيما عند الله من الثواب الجزيل الذي أعده الله للطائعين من عباده المؤمنين بوعده ، الراجين لثوابه ، فإن من ترك صيامه وشرابه وشهوته لله تعالى ، يرجو ما عنده عوض ذلك في الجنة ، فهذا قد تاجر مع الله ، وعامله ، والله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا يخيب معه عمل عامل، بل يربح عليه أعظم الربح ؛ ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام كما في مسند أحمد : « إنك لن تدع شيئًا اتقاء الله إلا آتاك الله خيرًا منه » رواه أحمد ، فإن الصائم الذي أتم صيامه وصانه عن ما يفسده وينقصه ، يعطى في الجنة ما شاء الله من طعام وشراب ونساء .

قال الله عز وجل : ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤] ، قال مجاهد وغيره : نزلت في الصائمين . قال يعقوب بن يوسف الحنفي : بلغنا أن الله تعالى يقول لأوليائه يوم القيامة : « يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة ، وغارت أعينكم ، وجفت بطونكم ، كونوا اليوم في نعيمكم ، وتعاطوا الكأس فيما بينكم ، وكلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية » .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة بابًا يقال له باب

الريان ، يدخل منه الصائمون ، لا يدخل منه غيرهم» .

نسأله سبحانه أن يمن علينا جميعًا بالمحافظة على صيامنا ، وجميع فرائض ديننا ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل .

وصلى الله وسلم على خير خلقه سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه .

* * *

(٧)

الإكثار من تلاوة القرآن الكريم

يستحب للصائم في هذا الشهر الكريم الإكثار من تلاوة القرآن ودراسته ، ومدارسته ، والاجتماع على ذلك ، وعرض القرآن على من هو أحفظ له اقتداء بالنبي ﷺ ، كما ورد في حديث فاطمة رضي الله عنها عن أبيها ﷺ « أنه أخبرها أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن كل عام مرة ، وأنه عارضه في عام مرتين» رواه مسلم .

وفي حديث ابن عباس أن المدارسة بينه وبين جبريل كانت ليلاً ، فدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلاً ، فإن الليل تنقطع الشواغل ، ويجتمع فيه الهم ، ويتواطأ القلب واللسان على التدبر ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦] .

وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥] ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنه : إنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر،ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣] .

وقد كان النبي ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره ، وقد صلى معه حذيفة رضي الله عنه ليلة في رمضان ، قال : « فقرأ بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران ، لا يمر بآية تخويف إلا وقف وسأل ، فما صلى

الركعتين حتى جاءه بلال فأذن بالصلاة» رواه أحمد والنسائي في الكبرى .

وكان السلف الصالح رضي الله عنهم يكثرون من تلاوة القرآن في رمضان في نهاره ولياليه ، ويغتنمون هذه الأيام لما فيها من مضاعفة الأجر واقتداء بالنبي ﷺ .

قال الزهري : إذا كان رمضان فإنما هو تلاوة القرآن ، وإطعام الطعام.

قال عبد الرزاق : كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع نوافل العبادة ، وأقبل على قراءة القرآن .

وإن من أعطاه الله القرآن العظيم ، فحفظه ، وعمل به ، فقد حصل له الخير الكثير ، والنعمة العظيمة ، فيجب المحافظة عليه ، وتعاهده بكثرة التلاوة ، والتأمل لمعانيه ، والعمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه ، وينبغي له أن يغتبط ويفرح به ، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

ولا ينبغي لمن منّ الله عليه بحفظ كتابه أن يمد عينيه إلى ما أوتيه الآخرون من زهرة الحياة الدنيا ، ونعيمها ، وكثرة أموالها ، وشهواتها ، وما فيها من البهجة والسرور ، من قصور شامخات ، وبساتين مثمرات ، وقصور منيفات ، ومراكب فاخرات ، فإن ما أعطاه الله من نعمة حفظ كتابه ، والعمل به ، وتلاوته لا يعدله شيء من الأمور ، فإنه هو نعيم الدنيا ، ومن أسباب نعيم الآخرة الذي لا يعدله شيء ، فلا يغبط أهل الدنيا بما هم فيه، فالغبطة إنما تحصل له كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل

آتاه مالاً ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأهله » .

فينبغي لحافظ القرآن أن يتعاهده ؛ مخافة نسيانه وأن يعرضه على من هو أحفظ منه ، أو على من يستمع له من المصحف ؛ ليتأكد من حفظه ، وليتذكر ما قد يفوت عليه ، وهذه أيضًا سنة ينبغي العمل بها ، اقتداء بالمصطفى عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم ، فإنه قد جاء في حديث فاطمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه أخبرها أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن كل عام مرة ، وأنه عارضه في آخر عام من حياته مرتين .

وجاء في حديث عبد الله بن عباس أن المدارسة بينه وبين جبريل كانت ليلاً، فهذا يدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلاً ، فإن الليل تنقطع فيه الشواغل ، وتجتمع الهمم ، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـࣰٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل: ٦] .

وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن الكريم ، كما قال تعالى : ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ ولذلك كان السلف الصالح يكثرون من التلاوة في شهر رمضان ليلاً ونهارًا ، اقتداء بالرسول ﷺ وأصحابه ، فكان بعضهم يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليال ، وبعضهم في كل سبع، منهم قتادة ، وبعضهم في كل عشر ، منهم أبو رجاء العطاردي .

وكان السلف يكثرون من تلاوة القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها ، فكان الأسود رحمه الله يقرأ القرآن في كل ليلتين في رمضان ، وكان النخعي يفعل ذلك في العشر الأواخر خاصة ، وفي بقية الشهر كل ثلاث ، وكان للشافعي رحمه الله في رمضان ستون ختمة ، يقرؤها في غير الصلاة ، ويروى عن أبي حنيفة رحمه الله نحوه ، وكان مالك رحمه الله إذا دخل رمضان يترك قراءة الحديث ، ومجالسة أهل العلم ، ويقبل على تلاوة القرآن من المصحف ، وكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان ، فإذا طلعت الشمس نامت .

فاحرص أيها المسلم على تلاوة القرآن ؛ لتحوز الأجر العظيم من الله، فإن لك بكل حرف عشر حسنات ، كما جاء الخبر بذلك عن المصطفى ﷺ حتى يكون لك شافعًا عند الله ، فقد جاء في حديث بريدة الذي خرجه الإمام أحمد رحمه الله مرفوعًا إلى النبي ﷺ : « إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره ، كالرجل الشاحب ، فيقول هل تعرفني؟ أنا صاحبك الذي أظمأتك في الهواجر ، وأسهرت ليلك ، وكل تاجر من وراء تجارته ، فيعطى الملك بيمينه ، والخلد بشماله ، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ثم يقال له : اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها ، فهو في صعود ما دام يقرأ هزًّا كان أو ترتيلاً » .

وفي حديث عبادة بن الصامت : أن القرآن يأتي صاحبه فيقول له : «أنا القرآن الذي كنت أسهر ليلك ، وأظمئ نهارك ، وأمنعك شهوتك ، وسمعك ، وبصرك ، فتجدني من الأخلاء خليل صدق ، ومن الإخوان أخا

صدق ، فأبشر ، فيؤمر له بفراش ، ودثار ، وقنديل ، من الجنة ، وياسمين من ياسمين الجنة فيحمله ألف ملك من مقربي السماء الدنيا ، قال : فيسبقهم إليه القرآن ، فيقول : هل استوحشت بعدي ؟ فإني لم أزل بربي الذي خرجت منه ، حتى آمر لك بفراش ودثار ، ونور من نور الجنة ، فتدخل عليه الملائكة ، فيحملونه ويفرشون ذلك الفراش تحته ، ويضعون الدثار تحت قلبه ، والياسمين عند صدره ، ثم يحملونه حتى يضعونه على شقه الأيمن ، ثم يصعدون عنه ، فيستلقي عليه ، فلا يزال ينظر إلى الملائكة، حتى يلحقوا في السماء ، ثم يرفع القرآن في ناحية القبر فيوسع عليه ما شاء الله أن يوسع من ذلك » رواه الحارث في مسنده .

وليحذر حافظ القرآن كل الحذر من عدم العمل بالقرآن ، والقيام بحقوقه ، فإنه وردت عدة أحاديث تدل على أن من كان معه القرآن ، فنام عنه بالليل ، ولم يعمل به بالنهار ، فإنه ينتصب له خصمًا يوم القيامة ، يطالبه بحقوقه التي ضيعها ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

اللهم ارزقنا العمل بكتابك وآمنا من عذابك . وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه نبينا وسيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(٨)

آداب الصائم

اعلم أيها الصائم الكريم أن للصوم آدابًا ينبغي أن نتأدب ونتخلق بها:

منها : كف النظر ، وكف اللسان عن فضول الكلام .

ومنها : الإفطار على الحلال وتعجيله ، وأن يفطر على رطب ، فإن لم يجد فعلى تمر .

ويستحب أن يقول : اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت، وعليك توكلت ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا افطر يقول : « اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي» رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقي .

ويستحب تعجيل الفطر ؛ لحديث : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » رواه البخاري ومسلم .

وينبغي للصائم أن يحرص غاية الحرص على إخلاص العمل لله ، وأن يجتنب الأمور التي تنقص صيامه أو تبطله ، وذلك كالسب للناس والطعن فيهم ، والكذب ، والفحش ، والفجور ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ورب قائم حظه من قيامه السهر » رواه أحمد وابن أبي شيبة في مصنفه .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا كان أحدكم يومًا صائمًا فلا يجهل ولا يرفث ، فإن امرؤ قاتله أو شتمه فليقل إني صائم » رواه أحمد وغيره .

وينبغي للمسلم أن يغتنم أوقات هذا الشهر الكريم ، ويكثر فيه من الصلاة ، وقراءة القرآن ، والذكر ، والتسبيح ، والتهليل ، والتحميد ، فإن هذا موسم من مواسم الطاعات .

وقد جاء عنه ﷺ أنه قال : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النيران ، وسلسلت الشياطين ، ونادى مناد: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر » رواه البخاري ومسلم .

وقد قال ﷺ : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

فينبغي للمسلم أن يحاسب نفسه ، ويعودها على فعل الخير ، ويوطنها على الصبر على الطاعات ، فإن النفس لا تقف في شهواتها عند حدّ ، فهي كالطفل الشرس ، كلما أجبت لها شهوة ازدادت رغبة في شهوة أخرى ، وألحت في طلبها ، ومن أعطى نفسه كل ما تشتهي فإنه سوف يندم حين لا ينفعه الندم ، وستكون عاقبته الخسارة ، وقد قيل في هذا المعنى :

مَنْ لي برد جماحٍ مِنْ غوايتها

كما يُرد جماح الخيل باللجم

فلا ترمْ بالمعاصي كســــــر شهواتها

إن الطعام يقوي شـــــــهوة النهم

والنفس كالطفل إن تهمله شـــبَّ على

حب الرضـــــاع وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواهــــــا وحاذر أن توليه

إن الهــــــوى ما تـولى يعم أو يصم

كم حســــــنت لذة للمـــرء قاتلة

من حيث لم يدر أن السم في الدســـم

وخالف النفس والشيطان واعصمهما

وإن هما محضـاك النصـــــح فاتهم

أيها المسلم : إن المسلم إن لم يستطع أن يسيطر على نفسه ، وأجابها إلى جميع رغباتها فليس بصائم ، ومن لم يمتنع عن اللغو والرفث فليس بصائم .

إنه لن ينال الله من إمساكنا عن الطعام والشراب شيء ، ولكنه يناله التقوى من كل ذلك ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» رواه البخاري .

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا ، اللهم قونا على طاعتك وجنبنا أسباب معصيتك ، وارحمنا برحمتك الواسعة آمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين .

(٩)

الجود في رمضان (١)

في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان النبي ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة» . وزاد الإمام أحمد : «ولا يسأل عن شيء إلا أعطاه» .

هكذا كان خلقه ﷺ في هذا الشهر الكريم ، فإن يجود ويتضاعف جوده في هذا الشهر أكثر من سائر الأوقات ، وذلك أن الأعمال فيه تضاعف ، والمسلمون ينصرفون إلى طاعة ربهم ومولاهم ، وإعانتهم ، وتقويتهم على طاعة الله مطلوبة ، ويحصل بها المشاركة في الأجر ، كما قال عليه السلام : « من فطر صائمًا فله مثل أجره» .

فينبغي لك أيها المسلم المبادرة إلى فعل الخير والتأسي والاقتداء بنبيك ﷺ ، فإن النبي ﷺ كما تقدم لنا في الحديث أنه كان أجود ما يكون في رمضان.

والجود هو من الصفات الحميدة التي يحبها الله ورسوله ، ولذلك كانت من صفات الباري عز وجل ، فإنه هو الجواد على الحقيقة ، ويحب الجود ، وهو الكريم ، ويحب الكرم ، كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن الله جواد يحب الجود كريم يحب الكرم» . أخرجه الترمذي .

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز

وجل قال : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد ، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منكم ، ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ، ثم رفعها إليه ، ذلك بأني جواد ، وأجود ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون» أخرجه الترمذي .

وفي الأثر عن فضيل بن عياض أن الله تعالى يقول كل ليلة : « أنا الجواد ومني الجود ، وأن الكريم ومني الكرم » أخرجه أبو نعيم في الحلية .

فالله سبحانه أجود الأجودين ، وجوده سبحانه يتضاعف في أوقات خاصة كشهر رمضان ، وفيه أنزل الله عز وجل قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] .

ولما كان الله عز وجل قد جبل نبيه ﷺ على أكمل الأخلاق وأشرفها كان ﷺ أجود الناس كلهم. وقد قال عليه السلام: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» أحمد وابن ماجة والحاكم .

وروي عنه ﷺ أنه قال : « ألا أخبركم بالأجود ، الأجود الله الأجود الله ، وأنا أجود ولد آدم ، وأجودهم من بعدي رجل علم علمًا فنشر علمه ، يبعث يوم القيامة أمة واحدة ، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله » أخرجه أبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان وفيه ضعف. فدل هذا على أنه ﷺ أجود بني آدم على الإطلاق ، كما أنه أفضلهم وأعلمهم ، وأشجعهم ، وأكملهم في جميع الصفات الحميدة ، وكان جوده ﷺ يجمع أنواع الجود والكرم من بذل

العلم والمال ، وبذل نفسه لله في إظهار دينه ، وهداية عباده ، وإيصال الخير والنفع لهم بكل طريق ، من إطعام جائعهم ، ووعظ جاهلهم ، وقضاء حوائجهم ، وتحمل أثقالهم ، والصبر على ما يصيبهم منه .

ولم يزل ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ ، ولهذا قالت خديجة في أول مبعثه ﷺ : « والله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك تصل الرحم ، وتقري الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق» رواه البخاري ومسلم .

ثم لما بعث ﷺ تضاعفت ، وزادت هذه الخصال فيه ؛ لأنه ﷺ بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، وكان ﷺ يجود وجوده كله لله ، وفي ابتغاء مرضاة الله ، فإنه كان يبذل المال إما لفقير ، أو محتاج ، أو ينفقه في سبيل الله ، أو يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه ، كما أعطى عليه السلام أناسًا من رؤساء العرب على مائة بعير ، وعلى خمسين بعيرًا يؤلف قلوبهم ، ويرغبهم في الإسلام .

وكان ﷺ يؤثر على نفسه وأهله وأولاده ، فيعطي العطاء الكثير الذي يعجز عنه الملوك ، ويعيش في نفسه عيشة الفقراء ، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار ، وربما ربط الحجر على بطنه من شدة الجوع . وكان قد أتاه مرة سبي فشكت فاطمة رضي الله عنها ما تلقى من خدمة البيت ، وطلبت خادمًا يكفيها مؤنة البيت ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها ، وقال : « هذا خير لك من خادم»رواه مسلم ، وقال : «لا أعطيك وأهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع» رواه

أحمد والبيهقي في شعب الإيمان.

فعليك أيها المسلم التأسي بنبيك ، والاهتداء بهديه ، والاقتداء بسنته ، فتصدق على المحتاجين ، واصفح عن الجاهلين ، وحصن صيامك عن ما يخل به ، وسارع إلى نفع إخوانك من المعوزين ؛ لتفوز في هذا الشهر الكريم بجائزة الرب ومغفرته .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

(١٠)

الجود في رمضان (٢)

كان النبي ﷺ أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم، وأعلمهم، وأشجعهم، وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم، والمال، وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه ، وهداية عباده ، وإيصال النفع إليهم بكل طريق ، من إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، ولم يزل ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ، ولهذا قالت له خديجة في أول مبعثه : «والله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتقري الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق» رواه البخاري ومسلم .

ثم إنه ﷺ بعد بعثته ونبوته تزايدت فيه هذه الخصال وتضاعفت أضعافًا كثيرة ، وقد جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس» .

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : « ما سئل رسول الله ﷺ عن الإسلام شيئًا إلا أعطاه ، فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين ، فرجع إلى قومه ، فقال : يا قوم أسلموا ، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة » . قال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها .

وجاء عن صفوان بن أمية قال : « لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما

أعطاني ، وإنه لمن أبغض الناس إليّ ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ » رواه مسلم ، قال ابن شهاب : أعطاه يوم حنين مائة من النعم ثم مائة ثم مائة .

وفي مغازي الواقدي أن النبي ﷺ أعطى صفوان يؤمئذ واديًا مملوءًا إبلاً وغنمًا ، فقال صفوان : أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي .

وروى البخاري من حديث سهيل بن سعد : «أن شملة أهديت للنبي ﷺ ، فلبسها وهو محتاج إليها ، فسأله إياها ، فأعطاه إياها ، فلامه الناس ، وقالوا : كان رسول الله ﷺ محتاجًا إليها ، وقد علمتَ أنه لا يرد سائلاً ، فقال : إنما سألته لتكون كفني فكانت كفنه» .

فإذا تأملت هذا الوصف له ﷺ وهو الكرم والجود ، فتجد أنه ﷺ استمده من القرآن الكريم ؛ لأنه كان يتأدب بآدابه ، ويتخلق بأخلاقه ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن ، فكان عليه الصلاة والسلام يأتمر بأمره ، وينتهي بنهيه .

وقد اشتمل القرآن على صفات الله سبحانه وتعالى من الحلم ، والإحسان ، والكرم ، وسعة العطاء ، فكان عليه الصلاة والسلام يحب أن يتصف بالصفات التي يحبها الله تعالى ، فالله سبحانه هو الغاية في الكرم ، والإحسان ، والصفح ، والعفو ، والحلم ، وجميع صفات الكمال ، وتجد أن الرسول ﷺ هو أجود الخلق ، وأكرمهم ، ولذلك لما سمع بعض العلماء هذه الأبيات في وصفه بعض الكرماء قال : هذه لا تصلح إلا للرسول ﷺ وهي قوله :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناهـــا لقبض لم تطعه أنامله

تراه إذا ما جئتـــــه متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

والحقيقة أن مثل هذا الثناء لا يصلح إلا أن يكون له ﷺ وأما صفة الله فهي فوق كل صفة ، ولهذا يقال أن الشبلي سمع قائلاً يقول : بالله يا جواد ، فتأوه وصاح ، وقال : كيف يمكنني أن أصف الحق بالجود ، ومخلوق يقول في شكله ، فذكر هذه الأبيات : تعود بسط الكف ... ثم بكى الشبيلي ، وقال : بلى يا جواد فإنك أوجدت تلك الجوارح ، وبسطت تلك الهمم ، فأنت الجواد كل الجواد ، فإنهم يعطون عن محدود ، وعطاؤك لا حد له ، فيا جواد يعلو كل جواد ، وبه جاد كل من جاد .

وفي تضاعف جوده ﷺ في شهر رمضان بخصوصه فوائد :

منها : شرف الزمان ، ومضاعفة أجر العمل فيه ، كما ورد في الحديث «أفضل الصدقة صدقة في رمضان» .

ومنها إعانة الصائمين، والقائمين، والذاكرين، على طاعتهم. فيستوجب المعين لهم مثل أجرهم ، كما أن من جهز غازيًا فقد غزا ، ومن خلفه في أهله فقد غزا .

وجاء عنه ﷺ أنه قال : « من فطر صائمًا فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء ، وما عمل الصائم من أعمال البر إلا كان لصاحب الطعام مادام قوة الطعام فيه» رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة .

وجاء في حديث سلمان رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ في صفة شهر رمضان وفيه : « وهو شهر المواساة ، وشهر يزاد فيه في رزق المؤمن، من فطر صائمًا كان مغفرة لذنوبه ، وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء ، قالوا : يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم قال : يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائمًا على مذقة لبن أو تمرة أو شربة ماء ، ومن سقى فيه صائمًا سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة » .

ومنها : أن شهر رمضان شهر يجود الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار ، لا سيما في ليلة القدر ، والله تعالى يرحم من عباده الرحماء، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء ، فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء والفضل والجزاء من جنس العمل» .

ومنها : أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة ، كما في حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة غرفًا يرى ظاهرها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، قالوا : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام» رواه أحمد والطبراني والحاكم .

وهذه الخصال كلها تكون في رمضان ، فيجتمع فيه الصيام ، والقيام، والصدقة ، وطيب الكلام ، والصدقة توصل صاحبها إلى الله عز وجل . قال بعض السلف : « الصلاة توصل صاحبها إلى نصف الطريق ، والصيام يوصله إلى باب الملك ، والصدقة تأخذ بيده فتدخله على الملك » .

ومنها : أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا ، واتقاء جهنم ، والمباعدة عنها ، وخصوصًا إذا انضم إلى ذلك قيام الليل . كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : « صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبر ، صوموا يومًا شديدًا حره لحر يوم النشور، تصدقوا بصدقة نشر يوم عسير » رواه البيهقي في شعب الإيمان.

ويستحب للصائم أن يحرص في هذا الشهر على الإيثار ، وإعانة الصائمين على التقوى على العبادة ، بإطعامهم الطعام ، وسقايتهم الشراب، ولذلك كان كثير من السلف يواسون من إفطارهم، أو يؤثرون به، ويطوون .

وكان ابن عمر رضي الله عنه يصوم ولا يفطر ، إلا مع المساكين ، فإذا منعه أهله عنهم لم يتعش تلك الليلة ، وكان إذا جاءه سائل وهو على طعامه أخذ نصيبه من الطعام فأعطاه السائل .

واشتهى بعض الصالحين من السلف طعامًا ، وكان صائمًا فوضعه بين يديه عند فطوره ، فسمع سائلاً يقول : من يقرض العلي الوفي الغني ؟ فقام ، وأخذ الصحفة ، فخرج بها إليه ، وبات طاويًا .

وجاء سائل إلى الإمام أحمد فدفع إليه رغيفين كان يعدهما لفطره ، ثم طوى ، وأصبح صائمًا .

وكان الحسن يطعم إخوانه وهو صائم تطوعًا ، ويجلس يروحهم وهم يأكلون .

وكان ابن المبارك يطعم إخوانه في السفر الألوان من الحلواء وغيرها وهو صائم .

قال الإمام الشافعي رحمه الله : أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان ، اقتداء بالرسول ﷺ ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم ، ولتشاغل كثير منهم بالصوم ، والصلاة ، على مكاسبهم .

اللهم وفقنا لما وفقت إليه عبادك الصالحين ، ومن علينا باقتفاء طريقة سيد المرسلين ، واسلك بنا طريق الاستقامة ، واهدنا إلى سبيل السلامة .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(١١)

فضل التوبة

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا ؛ غفر له ما تقدم من ذنبه» .

وروى الإمام أحمد وابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « من صام رمضان فعرف حدوده ، وتحفظ مما ينبغي التحفظ منه كفر ذلك ما قبله» .

وجمهور العلماء رحمهم الله على أن تكفير الذنوب المراد به الصغائر منها ، وأما الكبائر فإنه لابد فيها من التوبة النصوح .

والتوبة النصوح هي ما اشتملت على ثلاثة أمور : الأول: الإقلاع عن الذنب ، والثاني: الندم على ما فعل ، والثالث: العزم على أن لا يعود لمثله .

ويدل على ذلك ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» .

واختلف العلماء في تأويل معنى هذا الحديث ، فقال طائفة منهم : إن هذا الحديث يدل على أن تكفير الصغائر مشروط باجتناب الكبائر ، كما يدل عليه قوله : «ما اجتنبت الكبائر» ، فإذا لم تجتنب الكبائر لم يحصل التكفير

للصغائر ، والقول الآخر لبعض العلماء : أن المراد أن هذه الفرائض التي هي الصلوات الخمس والجمعة ورمضان تكفر صغائر الذنوب دون كبائرها ، وأن الصغائر مكفرة بها سواء اجتنبت الكبائر أو لم تجتنب .

وقد قال ابن المنذر رحمه الله في قيام ليلة القدر : إنه يرجى به مغفرة الذنوب كبائرها وصغائرها .

وجمهور العلماء رحمهم الله : أن الكبائر لابد لها من توبة نصوح ، فحديث أبي هريرة المتقدم يدل على أن هذه الأسباب الثلاث التي هي الصلوات الخمس، والجمعة، ورمضان، مكفرات لما سلف من الذنوب ، ما اجتنبت الكبائر ، وصيام رمضان وقيامه يحصل به التكفير عند انتهاء الصيام والقيام ، أي في آخر الشهر فأتم الشهر ، فقد كمل للمؤمن صيام رمضان وقيامه ، فيترتب على ذلك مغفرة ما تقدم من ذنبه بتمام السببين وهما الصيام والقيام .

ويدل على ذلك : ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أعطيت أمتي خمس خصال في رمضان لم تعطها أمة غيرهم : خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا ، ويزين الله كل يوم جنته ويقول : يوشك عبادي أن يكفوا عنهم المؤنة والأذى ويصيروا إليك ، وتصفد فيه مردة الشياطين ، فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره ، ويغفر لهم في آخر ليلة فيه ، فقيل يا رسول الله : أهي ليلة القدر ؟ قال : لا ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله» .

وقد روي أن الصائمين يرجعون يوم الفطر مغفورًا لهم ، وأن يوم الفطر يسمى يوم الجوائز ، وقال الزهري : إذا كان يوم الفطر ، وخرج الناس إلى الجبار اطلع الله عليهم ، فقال : يا عبادي لي صمتم ، ولي قمتم ، ارجعوا مغفورًا لكم .

وفي حديث مرسل : « من أتى عليه رمضان فصام نهاره ، وصلى وردًا من ليله ، وغض بصره ، وحفظ فرجه ولسانه ويده ، وحافظ على صلاته في الجماعة ، وبكر إلى جمعة ، فقد صام الشهر ، واستكمل الأجر ، وأدرك ليلة القدر ، وفاز بجائزة الرب» .

فإذا أكمل الصائمون صيام رمضان وقيامه فقد وفوا ما عليهم ، وبقي ما لهم من الأجر ، وهو المغفرة ، فإذا خرجوا يوم عيد الفطر إلى الصلاة قسمت عليهم أجورهم ، فرجعوا إلى منازلهم وقد استوفوا الأجر واستكملوه ، ولذلك كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل ، وإتقانه ، وإكماله ؛ لعله يكون سببًا للقبول والفوز بجائزة الرب ، ويهتمون بعد ذلك بقبوله، ويخافون من رده،ولذلك وصف الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] .

وروي عن الإمام علي رضي الله عنه قال : « كونوا لقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل ، ألم تسمعوا الله عز وجل يقول : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] » .

وعن فضالة بن عبيد قال : لأن أكون أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إليّ من الدنيا وما فيها ؛ لأن الله يقول : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ

ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وروي عن علي رضي الله عنه : « أنه كان ينادي في آخر ليلة من شهر رمضان: يا ليت شعري مَنْ هذا المقبول فنهنيه ، ومن هذا المردود فنعزيه » .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : « من هذا المقبول منا فنهنيه ومن هذا المحروم فنعزيه ، أيها المقبول هنيئًا لك ، أيها المردود جبر الله مصيبتك» .

اللهم اجعلنا من المقبولين المرحومين ، ولا تجعلنا من المطرودين المحرومين . اللهم اختم لنا بخير ، واجعلنا من المعتقين في هذا الشهر الكريم ، يا رحمن يا رحيم، يا رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

❊ ❊ ❊

(١٢)

العشر الأواخر وقيام الليل

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر ، شد مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله» . وفي لفظ مسلم : «أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وجد ، وشد المئزر » .

هذا الحديث الشريف يدل على فضيلة هذه العشر التي هي العشر الأخيرة من شهر رمضان ، فقد خص الله هذا الشهر بمزايا لم تكن في سائر الشهور ، من تنزل الرحمات ، ومغفرة السيئات ، ومضاعفة الأجور ، وعتق الرقاب فيه من النار ، وخص الله هذه العشر منه بمزيد من الفضل ، وجعل ليلة القدر فيها خيرًا من ألف شهر ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ [القدر: ١-٥] ، وكما في قوله سبحانه ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الدخان:٣-٦] .

فهذا يدل على فضل هذه الليلة المباركة ، وأن الله جعلها رحمة لعباده، يجود عليهم فيها بمضاعفة الحسنات ، ومحو السيئات ، وجعل العبادة فيها خيرًا من العبادة في ألف شهر خالية منها .

ولذلك كان ﷺ يخص هذه العشر بمزيد من العبادة ، فكان يتفرغ

لمناجاة ربه ، ويسهر ليله ، ويكثر من تلاوة القرآن ، ويتجنب نساءه ، وينقطع فيها للعبادة ، كما يدل على ذلك الحديث المتقدم وغيره من الأحاديث . كما جاء في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره» .

كان النبي ﷺ يخص العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها في بقية الشهر :

فمنها : إحياء الليل ، فيحتمل أن يراد بإحيائه كله ، كما ورد من بعض الطرق عن عائشة : « وأحيا الليل كله » .

وجاء في المسند عنها قالت : «كان النبي ﷺ يخلط العشرين بصلاة ونوم ، فإذا كان العشر -يعني الأخير- شمر وشد المئزر » .

وروي عن أنس رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا شهد رمضان قام ونام ، فإذا كان أربعًا وعشرين لم يذق غمضًا» ، ويحتمل أن يراد بإحياء الليل: إحياء غالبه .

وقد روي عن بعض السلف: أن من أحيا نصف الليل فقد أحيا الليل كله . وروي أيضًا مثل هذا عن عائشة رضي الله عنها .

وكان اجتهاده ﷺ في هذه العشر كله طلبًا لليلة القدر ؛ ولذلك روي عنه ﷺ أنه قام بهم ليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين ؛ لأن هذه الليالي أرجى أن تكون ليلة القدر . وروي أنه دعا أهله ونساءه ليلة سبع وعشرين ، وهذا يدل على أنه يتأكد إيقاظهم في آكد الأوتار التي ترجى

فيها ليلة القدر .

وقد روى الطبراني عن علي رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان ، وكل صغير وكبير يطيق الصلاة » .

قال سفيان الثوري رحمه الله : « أحب إذا دخل العشر أن يتهجد بالليل ، ويجتهد فيه ، وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا» .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان يطرق فاطمة وعليًا ليلاً فيقول لهما : «ألا تقومان فتصليان » . وكان يوقظ عائشة بالليل إذا قضى تهجده وأراد أن يوتر .

وفي الموطأ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أنه كان يصلي في الليل ما شاء الله أن يصلي حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة يقول لهم : الصلاة ، الصلاة ، ويتلو هذه الآية ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه :١٣٢] » .

فجميع ما تقدم من الأحاديث والآثار تدل على فضل الصلاة في الليل ، واستحباب إيقاظ الأهل والولد من أجلها لا سيما في هذه الليالي العظيمة الشريفة التي هي مغنم وموسم من المواسم التي تعوض إذا فاتت، ولا يعلم العبد هل يدركها عامًا قابلاً أو لا يدركها .

وقوله في الحديث : « أنه ﷺ كان يشد المئزر » اختلف العلماء في معناه، فمنهم من قال : هو كناية عن شدة جده واجتهاده في العبادة ، ومنهم من قال : إن هذا إشارة إلى اعتزاله النساء في هذه العشر ، وعدم قربانه لهن ؛

لشغله بالعبادة والصلاة والمناجاة لربه . وهذا تفسير كثير من السلف رحمهم الله وبعض الأئمة ، كما فسره سفيان الثوري وهو يروى بالمعنى عن عائشة رضي الله عنها وأنس بن مالك ، فقد جاء عنه رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر طوى فراشه ، واعتزل النساء» رواه الطبراني في الأوسط .

وأيضًا كان من عادته ﷺ أن يعتكف العشر الأواخر ، ومن المعلوم أن المعتكِف ممنوع من قربان النساء ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧] .

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا كان رمضان قام ونام ، فإذا دخل العشر الأواخر شد المئزر ، واجتنب النساء، واغتسل بين الأذانين ، وجعل العشاء له سحورًا » رواه الطبراني في الأوسط .

ويستحب في هذه الليالي الاغتسال بين صلاة المغرب والعشاء ، فقد روي عن علي رضي الله عنه « أن النبي ﷺ كان يغتسل بين العشائين كل ليلة» يعني : من العشر الأواخر .

وروي عن حذيفة رضي الله عنه : « أنه قام مع النبي ﷺ ليلة من رمضان ، فاغتسل النبي ﷺ ، وستره حذيفة ، وبقيت فضلة ، فاغتسل بها حذيفة ، وستره النبي ﷺ» .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله : كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة

من ليال العشر الأواخر ، وكان النخعي يغتسل في العشر كل ليلة ، ومنهم من كان يغتسل ، ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر .

وروي عن أنس رضي الله عنه : « أنه إذا كان ليلة أربع وعشرين اغتسل ، وتطيب ، ولبس حلة إزار ورداء ، فإذا أصبح طواهما ، فلم يلبسهما إلى مثلها من قابل .

وكان لتميم الداري حلة اشتراها بألف درهم ، وكان يلبسها في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر .

فتبين بهذا أنه يستحب في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظف والتزين ، والتطيب بالغسل والطيب واللباس الحسن ، كما يشرع ذلك في الجمع والأعياد ، كما أنه يشرع أخذ الزينة بالثياب في سائر الصلوات ، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف:١٣١] أي : عند كل صلاة . قال بعض العلماء : ولا يكمل التزين الظاهر إلا بالتزين الباطن ، وذلك بالتوبة إلى الله ، والإنابة إليه ، وانكسار القلب بين يديه ، فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغني شيئًا ، قال سبحانه : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ [الأعراف:٢٦] وقد قيل :

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى   تقلب عريانًا وإن كان كاسيًا

والله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، فمن وقف بين يديه فليزين له ظاهره باللباس ، وباطنه بلباس

التقوى .

نسألك اللهم أن تزينا بزينة الإيمان ، وأن تعتقنا في هذا الشهر الكريم من النيران ، وأن تجعلنا ممن قُبل صيامه وقيامه ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(١٣)

ليلة القدر واعتكاف العشر

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : « أرأيت إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول فيها ؟ قال : قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» .

وقد نبه الله سبحانه على فضل ليلة القدر وشرفها في قوله سبحانه : ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر:١-٥] .

فلطلب هذه الليلة كان رسول الله ﷺ يخص العشر الأخيرة من رمضان بمزيد من العبادة ، لا سيما لياليه ، فكان يعتكف في هذه العشر طالبًا لها ، وكان يحيي ليلها بالعبادة .

وجاء في مسند الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يخلط العشرين بصلاة ونوم ، فإذا كان العشر -يعني الأخير- شمر وشد المئزر» .

وروي عن أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا شهد رمضان قام ونام فإذا كان أربعًا وعشرين لم يذق غمضًا» .

وقال بعض العلماء : يحتمل أن يراد بإحياء الليل إحياء غالبه ، ويشهد لهذا القول ما روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما

أعلمه ﷺ قام ليلة حتى الصباح» .

فعلى المسلم أن يجتهد ويجد في هذه العشر اقتداء بالنبي ﷺ ، وطلبًا للفضل من الله سبحانه ، وأن يحرص على حضور الجماعة في أداء فرائضه ، لا سيما صلاة العشاء وصلاة الفجر ؛ لما جاء في فضلهما ، وأنهما أثقل الصلوات على المنافقين .

وقد روى الإمام مالك رحمه الله قال : بلغني أن ابن المسيب قال : من شهد العشاء ليلة القدر -يعني في جماعة- فقد أخذ بحظه منها ، وكذا قال الإمام الشافعي رحمه الله : من شهد العشاء والصبح ليلة القدر ، فقد أخذ بحظه منها .

وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : « من صلى العشاء الآخرة في جماعة في رمضان فقد أدرك ليلة القدر» رواه البيهقي في شعب الإيمان .

وقد روي في حديث مرسل أن النبي ﷺ قال : « من أتى عليه رمضان صحيحًا مسلمًا صام نهاره ، وقام ، وصلى وردًا من ليله ، وغض بصره ، وحفظ فرجه ولسانه ويده ، وحافظ على صلاته في الجماعة ، وبكر إلى جمعة، فقد صام الشهر ، واستكمل الأجر ، وأدرك ليلة القدر ، وفاز بجائزة الرب عز وجل» .

وكان ﷺ يعتكف في هذه العشر كما في حديث عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله » رواه

البخاري ومسلم . وإنما كان يعتكف النبي ﷺ في هذه العشر التي كانت تطلب فيها ليلة القدر؛ قطعًا لأشغاله ؛ وتفرغًا لباله؛ وتخليًا لمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وكان يحتجر حصيرًا يتخلى فيه عن الناس ، فلا يخالطهم ، ولا يشتغل بهم .

ولهذا ذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس ، حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن ، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلي بمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وإنما يكون ذلك في المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات ، فإن الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات منهي عنها، فالخلوة الشرعية لهذه الأمة هي الاعتكاف في المساجد ، خصوصًا في شهر رمضان وفي العشر الأواخر منه أخص ، كما كان النبي ﷺ يخصها .

فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه ، وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه . فمعنى الاعتكاف وحقيقته : قطع العلائق عن الخلائق ؛ للاتصال بخدمة الخالق .

وليلة القدر ترجى في العشر الأواخر من هذا الشهر وهي في السبع الأواخر منه أرجى ؛ لما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر ، فقال رسول الله ﷺ : أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحريها ، فيلتحرها في السبع الأواخر» .

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر ، فإن ضعف أحدكم أو عجز ، فلا يغلبن على

السبع البواقي» .

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في ليلة القدر في أي ليلة من العشر :

فالمشهور عن الإمام الشافعي رحمه الله : أنها ليلة إحدى وعشرين.

وروي عنه رضي الله عنه : أنها ليلة ثلاث وعشرين .

وكان الحسن البصري رحمه الله يرى : أنها ليلة أربع وعشرين .

وعند بعضهم : أنها ليلة سبع وعشرين ، كما جاء ذلك عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم ، وهو اختيار الإمام أحمد ، كما جاء في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني شيخ كبير عليل ، يشق علي القيام ، فمرني بليلة يوفقني الله فيها لليلة القدر ، قال : عليك بالسابعة» . وقد قال النبي ﷺ كما في حديث ابن عمر الذي رواه الإمام أحمد أيضًا أنه قال : « من كان منكم متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين» .

فينبغي للمسلم أن يحرص على هذه الليلة وأن يكثر فيها من الصلاة والتهجد والدعاء وقراءة القرآن لقوله ﷺ : « من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه البخاري ، وقيامها هو إحياؤها بالتهجد فيها والصلاة .

وقد أمر ﷺ عائشة بالدعاء فيها . ولذلك يروى عن سفيان رضي الله عنه أنه قال : « الدعاء في تلك الليلة أحب إليَّ من الصلاة ، وأفضل ما يدعى فيها سؤال العفو ، كما قال ﷺ لعائشة : « قولي : اللهم إنك عفو تحب

العفو فاعف عني» رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة .

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، واعتق رقابنا ، وآجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة يا حي يا قيوم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

فهرس الرسالة